ولكنه بعد المواجهة الحادة مع «دوف» ــ ابنه خلدون سابقاً ــ اتضح له موقف العجز الذي مارسه، هو وابناء طبقتــه، طوال العشرين عاماً السابقة، لذلك لم يجد وسيلة للدفاع عن نفسه، امام الحرج والتعرية اللذين مارسهما معه «دوف»، سوى اعلانه له: ان الامر بينهما لايحسم الا بالحرب، وعليه ان يتوقع ان تكون معركته القادمة، مع شقيقه «خالد» الذي التحق بالفدائيين، رغم انه يعرف ان خالداً لم يلتحق، حتى تلك اللحظة، بقواعد الثورة، بسبب منعه له، واستحالة قيامه بهذا الدور. لذلك، فهو يتمنى، اثناء طريق عودته الى «رام الله»: «ان يكون خالد... قد ذهب اثناء غيابنا»، فقد تأكد ان تسوية هذه الامور تحتاج الى حرب، فـ«دوف هو عارنا ولكن خالداً هو شرفنا الباقي». وفي بقية اعماله الروائية: «عن الرجال والبنادق»، «العاشق»، «الأعمى والاطرش» و«برقوق نيسان»، كان يعزف الحاناً متنوعة، ضمن الاطار السابق لحركة شعبه، تلك الحركة التي يرصدها دوماً، من خلال مواقفها من القضية وخصومها.

البطل في عالم غسان الروائي

إن عالماً روائياً له هذه الخصوصية من حيث المواكبة الدقيقة لحركة المجتمع، يفرض اسلوباً معيناً في رصد حركة ابطاله، لان الشخوص ــ انطلاقاً من هذه الخصوصية ــ سوف تنسجم افعالهم وردودها، مع طبيعة المرحلة، فالفرد رغم فاعليته ودوره في التاريخ والمجتمع، يبقى ابن المرحلة الزمنية التي يعيشها. وعندما يأخذ هذا الفرد موقع البطولة في العمل الروائي، فإن هذا يعني انه مقيد بالظروف الاجتماعية المحيطة به، والامكانيات الفردية المتاحة له، لانه وهو يجسد دور البطولة في الواقع، يتحرك لتحقيق الخطوات التي تمثل طموحه الانساني، الذي هو جزء من طموح محيطه الاجتماعي. اما دور الروائي، كمبدع، فيتحدد في التجسيد الفني للبطل، وفي الآفاق والحدود التي يرسمها لانطلاقه وتحركه، وهو بصدد المهمات المطلوب تحقيقها، ضمن وجوده وامتداده الانساني، الذي لا يتعارض مع الآفاق العامة، التي يتطلع اليها وسطه الاجتماعي.

ويختلف هذا التجسيد الفني من كاتب الى آخر، ويظهر الاختلاف في الآفاق والحدود التي يصل اليها البطل، وهي بدورها تعكس موقف الروائي وتطلعاته، اذ «لا يمكن ان نتصدى اليوم لقيم جمالية في رواية ما دون ان نبحث عن واقعية البطل كانسان، موجود حقاً، يحمل قيمته الموضوعية المسبقة، بشكل سابق على الابراز الفني. فالبطل شخص موجود قبل ان يتعرف اليه الكاتب. واما عمل الكاتب فهو ليس الاشارة اليه كشيء محسوس له ابعاده، بل انه يتناول خلق وجوده مرة ثانية»(١٤). اثناء عملية الخلق للمرة الثانية هذه، يتفاوت الروائيون من حيث طبيعة تشكيل البطل فنياً، لأن هذا التشكيل، يتعلق بطموحات الروائي، ورؤاه الحاضرة والمستقبلية، التي يعبر عنها روائياً من خلال مواقف البطل وافكاره، وقد ادى هذا التفاوت الى ان يخضع «مفهوم البطل للتغيير، ليس حسب شروط قسرية يرسمها الروائي، ولكن حسب التعبير عن الحاجات والضرورات، التي اوجدت حتى نوعاً من تخلي الروائي عن شخوصه، دون ان يعني ذلك